# الرمز بين الدين والإنسان

بقلم: حـــازم الـمدني

بسم الله الرحمن الرحيم

# الرمز بين الدين والإنسان

الرمز البشري المثالي لا يمكن صناعته ولكن يمكن تحسين أدائه .. فالرمزية هبة وموهبة .. وقبل ذلك اختيار إلاهي .. أول علامات نبوغ الرموز هي: التمرد والتضحية .. التمرد على الظالم وبطانته ورفض مرارة الواقع والسعي للتحرر .. والتضحية من أجل غيرهم (الفدائية) لرفعتهم ونصرة ما يعتقدون ويودون بشدة العيش في ظلاله .. ثم تأتي سلسلة من بديع السلوك وجميل الصفات: نصرة الحق .. الالتزام المطلق بالمبادئ والأخلاق الحسنة .. الكرم .. الشجاعة .. المروءة .. الشهامة .. الصدق .. الإيمان .. الحلم والحكمة والتجربة .. التواضع ولين الجانب ... إلخ .. وهو عين ما لخصته أمنا خديجة رضي الله عنها بقولها لرسول الله صلى الله عليه وسلم: إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ، وَتُكْسِبُ الْمَعْدُومَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ .. إنهم الرموز الذين يأسرون القلوب والعقول.

عنوان هذه الشريحة من الرموز هم الأنبياء والرسل أولًا؛ يليهم رموز في مجالات شتى على رأسها الرموز السياسية ثم العسكرية وهكذا دواليك .. فنجد الصديق والفاروق رضي الله عنهما ومن تبع دربهما من بعدهما إلى يوم الدين .. كذلك خالد بن الوليد والمثنى بن حارثة الشيباني وإخوانهم ومن جاء بعدهم من الفاتحين العظام.

هناك رموز أخرى ولكنها من الدرجة الثانية تحتاج إلى مجهود ودعم من الناس لبناء رمزيتها .. والتي تعتمد على شيء يكمل شخصيتها أو شيء تستعين به لإبراز شخصيتها: إرث السلطة .. المال .. قدرتهم على جمع الأبطال حولهم .. تقريبهم للمتخصصين والمهرة من أهل الفنون المتنوعة .. اقتناصهم للمواقف التي تعلي من شأنهم ...إلخ .. ويصح فيهم قول القائل: المرء بمن معه من الرجال.

وهناك الأبطال الذين يبرزون في ميادين الصراع سواء كفرسان في القتال أو أصحاب كلمة الحق في ميدان السياسة والعلم والقضاء كما أن هناك القدوات الذين يتحلون بموهبة في مجال معين ويتحلون بجميل الصفات

من أدب جم وتواضع ولين جانب .. ومنهم تجار الرحمن من أصحاب الأموال والشركات -بخلاف رجال المال الفاسدين الذين سنذكرهم في آخر هذه المحاضرة- .. وهناك أيضًا العباقرة والمخترعون الذين يسهلون مسيرة الإنسان على الأرض لاستثمارها على أكمل وجه .. إنهم يصلون لقلوب الناس دون أن يبذلوا في سبيل ذلك شيء اللهم إلا إخلاصهم في عملهم.

والرموز تلهم محبيها: بجوامع الكلم والحكم والشعارات والشعر والأناشيد والنماذج والرايات والإشارات.. وتلفت انتباههم: بالزي الذي يرتدونه ونمط حياتهم الشخصي والاجتماعي وبأسلوبهم في الحوار وبحيائهم وحسن إنصاتهم لمحبيهم.. ولكن أبرز ما يُدين به لهم محبوهم: حينما يرونهم بالقرب منهم في ساحات الجهاد وفي المشافي الميدانية ويطلقون النار معهم من خنادق القتال ويتناولون معهم الطعام على تراب الميدان .. وأكثر ما يزيد الثقة هو: رؤيتهم الفكرية واستراتيجية تنفيذها .. وصبرهم على ذلك .. وقدرتهم على تخطي همومهم وإصلاح عثراتهم .. فهم يمنحونهم أكبر آمالهم في التحرر والاستقلال .. ومن هذا الأمل تنعكس خطورة الرموز .. فبقدر عظمة استفتاحهم تأتي عظمة المسيرة وتكون عظمة النهاية.

هناك صنف من البشر من المتفوقين الانتهازيين .. ليسوا رموزًا ولن يكونوا رموزًا .. إنهم يجيدون لفت الانتباه؛ فقط .. إنهم يتخلون عن المبادئ والقيم ويستغلون ذكاءهم في تحصيل الدنيا لأنفسهم .. إنهم عبيد المال والجاه ولن يحصدوا أكثر من ذلك .. إنهم مجرد أذكياء استفادوا من الفرص المتاحة من أجل أنفسهم التي يعشقونها أكثر من أي شيء آخر .. ولن تدوم ذكراهم أكثر من أعمارهم؛ وربما أقل .. ولن يلهموا إلا من هم على شاكلتهم.

الرموز الصادقة لا تكتب تاريخها ولا تدون سيرها .. إنهم يحترمون أنفسهم ويحترمون مبادئهم .. إنهم ينكرون ذواتهم ولا يتشدقون بأعمالهم وينسون إنجازاتهم؛ لأنهم يرون ما يفعلونه واجبًا متعينًا عليهم لا فضل أو صدقة يمنون بها على الناس .. إنما يكتبها المؤرخون الذين يتلقفونها من أفواه المحبين ويشاهدون آثرها في الواقع .. الجبال الشامخة تنافس السحاب سمو ورفعة .. القمم السامقة لا يحجبها الغبار المتناثر ولا الدخان يسترها .. فالغبار يستر ما هو دون الكعبين والدخان يتلاعب به الهواء.

***

لكسب التأييد في المحيطين المحلي والإقليمي يجب أن يتوفر في الرمز ما يجعل الناس يحبونه ويقتنعون بأنه المختار .. لا بد أن يثير فيهم انطباعًا لافتًا لا تفقده ذاكرتهم بسرعة .. حينها سينجذب إليه آليا التأييد ودعم المحيط العالمي .. ولهذا لابد من وجود نقاط قوة جاذبة .. تتمثل في نوع النظام الذي تبشر به والمنهج الحركي الذي سوف تتحرك به .. وفي البريق المتنوع لشخصيات مجموعة القيادة وقوة جذب الشعارات والكلمات والتفرد في العرض أو التواجد الميداني وتحقيق انتصارات حقيقية واستعراضية والأهم نقاط الالتقاء مع المحيطات.

هذا التأييد (المحلي والإقليمي) لا يمكن الاعتماد عليه في البداية وعند الختام .. لكنهم؛ سيدعمون بقوة فيما بين المرحلتين السابقتين ولكنه دعم مقدم بمكر وخبث وأهدافه متنوعة .. من أهم هذه الأهداف تمويلهم لكسر الخصم لا للانتصار عليه .. ومنها أيضًا إحداث شق في صفك يمنحهم قدرة أكبر للسيطرة على وحدة الصف وقوة زخم الصراع واستمراريته .. ومنها محاولات اغتيالهم لعناصر القوة المحيطة بالصراع وخاصة للمفكرين الاستراتيجيين أو العسكريين البارزين ومن شابههم في المجالات الأخرى .. ومنها الابتزاز السياسي والاقتصادي وحتى توسعهم الحدودي .. ومنها السيطرة على القرار السياسي والعسكري وتبعيته لرؤيتهم ليصب في تحقيق مصالحهم ... إلخ .. وقد قيل: [أن الحليف يتحالف معك وعليك] فلا تنخدع وتسقط هذه الجملة من ذاكرتك؛ فالفارق كبير بين كسب الأصدقاء وكسب الحلفاء .. بين ما هو دائم وما هو مؤقت .. ما هو أصيل وما هو مخادع.

سيأتي الحلفاء والداعمون بوجوه ودودة وبشوشة تملؤها الابتسامة وهدوء النفس وخفة الظل ومناخ من التفاؤل والبشر عندما تكون مطلوبًا .. وسيأتونك بوجوه كالحة متجهمة فيها ظلمة وتكتنفها ظلال عابسة ونفوس متشنجة نكدة ومستفزة ومناخ من الهم والغم حينما تأتي ساعة الانفصال .. الجميع يعرف أن العلاقة بين الحلفاء لا تتعلق بالثقة بل بالمصالح .. ومصلحة المستضعفين الأساسية أثناء الصراع هي: البقاء والاستمرار حتى النصر .. فالنجاة من الموت المبكر -أيًا كان نوع الموت: حسي أو معنوي- للرموز يصبح هدفًا عند الحاضنة .. فإذا ما تحتم القتل على الرموز فليكن موتهم انطلاقة تسقط الأوهام وتحي الأمل وتنضج الصراع.. إن اغتيال الرموز تسونامي لا يردعه شيء.

لهذا وللنجاة من الحلفاء؛ فمن الأمور المهمة التي يجب أن يعمل عليها الرمز في مسيرة التغيير هي البدء بما تحت يديه أو ما يغنمه أو ما يقدمه شعبه ومحبوه أولًا .. ثم التفاعل مع الواقع لا السباحة في الخيال والإنصات لمعسول الكلام .. فليس كل ما يقال له ينفع؛ ربما معنويًا .. ولكن الأهم ما يقدم له فعليًا ومدى جدوى ذلك في مسيرة التغيير .. فبعض ما يقدم هو ما يرغب الداعم في التخلص منه أو تجربته .. ورغم هذا فلا يمكن إنكار أن ما يمنحه الداعم مفيد إلى حد ما فوجود شيء تبدأ به أفضل من لا شيء .. المهم أن تكون على وعي بمكرهم ولديك تقدير صحيح لنقطة الافتراق وكيفية إدارة العلاقة معهم حينها .. وكيفية إدارة المسيرة بعدها .. لأنه ومنذ البداية عليك العمل على وضع خطة مناسبة لتكون جاهزًا لهذه المرحلة حينما يحين وقتها .. إن كنت حكيمًا فعندما يحين الوقت ستكون قادرًا على تحمل تكاليفها وملحقاتها دون أن تهتز منظومتك بعنف.

***

يتميز الرمز بسيرته وتاريخه وموهبته ومؤهلاته العلمية والعملية وصفاته الذاتية .. ولكن أهم ما يلفت الانتباه إليه هو تلقائيته في المواقف المتنوعة والتي تظهر في عين الخبير ما يخفيه تواضعه .. فردود أفعاله تعبر عن قدراته وطاقته الكامنة التي تشع في المواقف الحساسة .. كما أن تعبيراته الحركية أو اللفظية الارتجالية تمنح محبيه الثقة في قدراته الذهنية والحركية .. ولهذا لا يجب أن تروض الرموز لأن الترويض يفسدها ويطمس بريقها .. ولهذا ذكرت أن الرموز الحقيقية لا تصنع ولكن تمنح الدعم الذي يجعلها تحسن من أدائها دون أن يسيطر عليها أحد.

الرموز لا يمكن أن تعامل الناس بتعجرف .. لأن المتعجرف عمره قصير فسرعان ما يبغضه الناس وينبذونه .. ولا أحد يرغب في ذلك .. التواضع أكثر جاذبية لأن به غموضا جذابا فلا أحد يدري ما يخفيه التواضع ولا ما يترتب على ذلك من مفاجآت .. يحب الناس القوة ويكرهون الضعف وهذه هي المعادلة الهامة أن تتواضع في قوة.

أصعب مهمة يواجهها الرموز هي ألا يتغيروا .. لأنهم إن فعلوا فقد تحولوا لعبيد يمتلكهم من قدر على تغييرهم ويستخدمونهم لخدمة مصالحهم .. والفارق كبير بين النضج الذي ينمو مع الوقت والتجارب مع التمسك بالقيم والمبادئ في سبيل نصرة ما يعتقدونه صوابًا .. وبين التغيير وفق رغبات ومتطلبات الحلفاء والداعمين؛ الذين

أول همهم أن تخسر قيمك ومبادئك حتى يتمكنوا منك ويستعبدوك .. أسوء تغيير يمكن أن يصيب الرمز يأتي من نفسه؛ ساعتها يفقد كل شيء.

***

التحدي يمنح الأمل فينتقل كالعدوى لينعش النفوس المتعطشة للحرية .. ولكن .. من المهام الصعبة التي توقع الرموز في الحيرة والتردد هي التهديد .. الذي تلده مواقف التحدي للظالمين .. وتدفع غيره لسلوك نفس سبيل التحدي .. عندها يُستخدم الأقارب والأحبة كورقة ضغط؛ إما أن تفعل كذا أو سنفعل بهم كذا .. لو كان التهديد على حياة الرمز لما تردد في التضحية بها وفاءً لمبادئه وقيمه .. لكنه ليس فيما يملك بل فيمن يحب؛ العائلة والجيران وربما القرية كلها!! .. ما أضعف الرمز البشري تحت التهديد .. وما أقواه قبلها؛ فتحديه أثبت هشاشة النظام القائم وبين عواره.

ولهذا على الرمز أن يتعقل كثيرًا ويمنح دورًا أكبر للوقت قبل أن يخوض غمار أي تحدي .. وعندما تأتي ساعة التحدي فلا عودة للوراء؛ فلن يُسمح له بهذا .. وساعتها يسهل التضحية من أجل ما هو أجل وأعظم.

ماذا إن ضعف الرمز وقبل بصفقة مع النظام؟ .. لن يسمح له بأن يغادر هذه السفينة أبدًا؛ إلا إلى القبر .. وسيتم ابتزازه ما بقي في السفينة ليظل مصدر إلهاء للناس .. ومع الوقت سيكون عبرة وعظة يحتقرها الناس وتلوكها الألسن .. ليته لم يقم بالتحدي وليته لم يقفز إلى السفينة -هكذا يحدث نفسه- .. الرموز الحقيقية تفضل الموت على خيانة دينها وموروثاتها ومبادئها وقيمها .. لأن أي صفقة مع النظام هي طعنة في ظهر كل من حلم يومًا بالتغيير من جيله .. وهي ضربة قاصمة للشعب؛ فالشعوب لا تستدعى للثورة كما تستدعى الجيوش للحرب .. إنها تنهض في لحظة الانفجار؛ فليحذر الرموز من إضاعة تلك اللحظة التاريخية.

***

عندما ينبغ أي رمز فأول خطوة تتخذها بطانة الحاكم هي السعي لاستقطابه واحتوائه .. والعمل على أن يجعلوه منهم؛ مثلهم .. قذر .. عليهم أن يكسروه ويحولوا صورته من حلم جميل إلى كابوس يتكرر كل ليلة ويوم في اليقظة والمنام .. لا يجب أن ينبغ من يمنح الشعوب أي أمل بالتغيير؛ وإنما يجب أن يمنحهم النظام المتسلط

وهم بالإصلاح ووعود كاذبة بتحسين ظروف معيشتهم .. وسيظل يظهر الجزرة ولا يطعمها أحد ويظهر العصا ويلهب بها ظهر المستضعفين .. إنه يجيد فلسفة خداع وقهر الشعب وإفساد أحلامهم .. وإذا لم يتمكن المستبد من احتواء الرموز وإفسادها سيعمد بكل حيلة لاغتيالها دون أن يحولها إلى مسيح يعشقه الناس .. إذا لم نفهم حقيقة أنظمة الحكم وخبثهم وكيدهم .. فكيف سنقوم بالتغيير .. القاعدة الأولى هي اعرف نفسك واعرف عدوك جيدًا.

اعرف نفسك جيدًا .. وامنح المخلصين فرص لدعمك .. نعم؛ على المخلصين الاستفادة من ظهور الرمز .. لا بد من مجموعة تعمل على تحسين أدائه بإكسابه الخبرة في أسرع وقت .. قبل أن يتعلم بالطريقة الصعبة .. عليهم أن يعلموه فلسفة الصراع بكل دقائقها .. بل أبعد من هذا؛ لا بد من تعليم الشعوب فلسفة الصراع ورفع وعيها فهذا أدعى لنبوغ العديد من الأفراد .. لهذا ذكرتُ ابتداءً: [الرمز البشري المثالي لا يمكن صناعته ولكن يمكن تحسين أدائه].

واعرف عدوك جيدًا .. لا يوجد نظام إلكتروني بدون ثغرات .. فهل يوجد نظام مستبد محكم ؟!!؛ كل الأنظمة تشوبها الثغرات .. المهم هو عين الخبير التي ترى الثغرات وذهنه الذي يعمل على استثمارها على أكمل وجه .. يعمقها ويوسعها ويتسلل منها ليقوض النظام .. ولن يستمر نظام للأبد؛ كم هو عدد الأنظمة التي سقطت خلال عقود عمرنا القليلة؟ .. كم حاكم مستبد هلك؟ .. لا بد للظلم أن يزول ولا بد للحق أن ينتصر قال تعالى: {وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ {١٧١} إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ {١٧٢} وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ {١٧٣} سورة الصافات.

وحين يتمكن الرموز من عدوهم فهم لا [1]يبالغون ولا يمعنون في الإذلال .. فغريزة العدل والعفو عندهم أنفع للصراع من غريزة الانتقام .. فحينما تضع الحرب أوزارها تراهم يجهزون عدوهم لتقبل الهزيمة ويمنحونه فرصة جديدة تأخذ بهم نحو حياة أفضل .. قدراتهم في ضبط النفس رائعة؛ وحرصهم لتحويل لحظات النهاية إلى بداية حقيقية هي كل ما يحتاجه خصومهم بعد أن ترفع الغشاوة عن أعينهم والستائر عن عقولهم .. هكذا هم

[1] العفو أساس لاستقرار المستقبل (فتح مكة)، والعدل أساس أيضًا مع الخونة (حُكم سعد بن معاذ على اليهود) ومع أبواق الأنظمة لاستقرار المستقبل ولحفظ هيبة الدين ورموزه؛ فقد أهدر النبي صلى الله عليه وسلم دم أربعة نفر وقينتان كانتا لابن خطل كانتا تغنيان بهجو النبي، (فليحذر المذيعين والمذيعات ومنْ وراءهم في الفضائيات وعلى الإنترنت من التجاوز على الإسلام ورموزه).

الرموز دائمًا بين رقة الآباء وعفوهم وعدل القاضي وحزمه.

***

لا تكتمل صورة الرموز ولا تكتسب روح الحركة حماستها بدون شعارات تتناقلها الأفواه ويتغنى بها الشعراء ويسمر على همساتها الشعب ويحلم بها في لياليه جيل التغيير .. إنها كالنسيم في ليال الصيف يغازل صداها قلوب الشباب وتداعب نسماتها بياض شعر الآباء والأمهات .. [عيش حرية عدالة .. أخرجوا المشركين من جزيرة العرب .. الشعب يريد إسقاط النظام .. شريعة الله لا شرعية الأنظمة .. وطن يا كفن .. القدس لن تهود... إلخ] .. إن عبقرية الشعوب تتجلى فيما يتغنون به من شعارات .. وما يعبرون عن أنفسهم به من ألوان .. فلكل مكان أو حادثة أو وقت ما يناسبه من نظم وكلمات وإنشاد .. وألوان.

وهناك شعارات منمقة لكنها فارغة .. تستهلك عملية التغيير وتستنزفها .. وتحبط الشعب وتمنح النظام فرصة ذهبية للسيطرة والقضاء على المخلصين .. منها ما قاله غاندي: [اللاعنف طريقة جديدة لشن الحرب] ومنها ما قاله محمد بديع مرشد الإخوان: [سلميتنا أقوى من الرصاص] .. وفوق الشعارات العجز عن رد الفعل كصمت محمد مرسي في فترة رئاسته على من كسر هيبته وأذله من أبواق النظام .. فكم هو عدد الثورات البيضاء التي نجحت وغيرت النظام دون أن تنزف قطرة دم واحدة؟! .. وفي حال نجاح التغيير فهل ستكتفي حركة التغيير بتوبيخهم أم ستحاكم الظلمة وتعدم من استحق الإعدام .. من هنا نتبين جودة الحس الشعبي الذي ذاق الأمرين فهتف بما يعبر عنه؛ عن رداءة ذوق النخب التي تتسلل في ظلال الوهم.

***

من الأمور التي تدمي قلب الرموز هو فقد الرفاق خلال المسيرة .. فالموت حق .. ولن يتحقق شيء في ظلال حالة العمى المسيطرة على فلسفة الغرب بدون دماء وأشلاء .. فهم يعشقون القوة ولا يفهمون لغة غيرها .. ونحن (المسلمون) نقدم الهداية لمن يفتح قلبه وعقله لنور الدعوة ولا نرفع السلاح إلا في وجه من أبى أو بغى .. وفرص النجاة متاحة لمن لم يرفع السلاح وامتنع عن الإسلام وقبل بالجزية وهي زهيدة جدًا .. ولكنّ العناد والبغي يفتح باب الصراع على مصراعيه .. وترتقي على طريقه نحو السماء أرواح نقية؛ بقدر ما تدمع لها أعين الرموز بقدر ما تشحنهم وتدفعهم لمواصلة الطريق والصبر عليه .. الرموز يتألمون بصدق مع كل

شهيد يفقدونه ويجدون في ذرف الدموع عليه فرصة للتخلص من كثير من الآلام المكبوته .. وسرعان ما ينتبهون للأحياء الذين معهم في الصف والذين يعملون على تحريرهم فيواصلون المسيرة برباطة جأش وسكينة الواثق بربه رغم ما يعتمل في صدورهم .. فوقت إخراج ما بالنفس من حزن لم يأت بعد .. أحيانًا لا يجدون الوقت لكلمات الوفاء والرثاء ولكن عيونهم تحمل الكثير من المشاعر لا يفقهها إلا من مر بما به مروا.

ويعاب على الرموز البشرية أنها فانية سرعان ما تندثر .. لكن ما يبقيها حية عابرة للزمان ومقيمة في التاريخ هو النهج والتعاليم والدين الذي تحركت به ودعت إليه وجاهدت لنصرته .. وهذا يقودنا إلى أن الرمز الحقيقي الممتد عبر الزمن هو الدين .. ولكن؛ في مغادرتهم إلى الدار الآخرة إلهام لمن حولهم وتثبتًا لهم على الطريق .. ومنارة للأجيال القادمة يتوجهون نحوها كلما آلمهم قسوة الموج وارتفاعه .. ومن غرسهم تنهض أرواح وأجيال واعدة .. فيثبتوا على ما ثبتت عليه قيادتهم .. وليستشهدوا على ما مات عليه أمراؤهم .. فرب أناس يحيون تموت القلوب برؤيتهم .. ورب أناس ماتوا تحي القلوب بذكرهم.

***

فرح اليهود يومًا حينما سمعوا الأحرف المقطعة .. واغتموا في آخر اليوم عندما تكاثرت عليهم الحروف .. هذه مناورة بدأت بصناعة الوهم والخداع فسحقتها الحروف.

الإنسان يفنى أما الدين [عقيدة وشريعة] بقيمه ومبادئه يدوم ويستمر .. وفي هذا إشارة بليغة حتى نوجه أمتنا نحو رمزيته وقدرته على الاستمرار .. الفناء لا ينقص من قدر الرموز البشرية ولكنه يدل على التمسك بما يدوم طويلًا .. والحضارات تسمى بمن أقامها فنقول: الحضارة الرومانية والإغريقية والفارسية والفرعونية وهكذا .. وتتسمى الدول بأسماء الأرض التي أقيمت عليها وأحيانًا تنسب لأسر أو أشخاص .. ثم اتخذ قادة بعض هذه الدول دين ما ولهذا لم تنسب دولهم وحضارتهم لدينهم بل نسب الدين إليها .. فيقال آلهة الفراعنة أو الفرس أو الإغريق أو الرومان .. وحينما نقول الحضارة الإسلامية والدولة الإسلامية فهذا يعني أن الدين هو من أقامها وأكسبها ثقافتها ووضع نظامها وحقق لها السيادة .. وهذا يعني أن مسيرتها مرتبطة بالدين .. وبقدر تمسكنا بالدين بقدر ما نحقق من نجاح .. وأي فشل يعني أننا فرطنا في شيء من الدين .. ولن نعود للنجاح إلا بترك عوامل الفشل وعلى رأسها التقليد الأعمى للغرب.

ومن الافتراء على البشرية أن ينسب للحضارة الغربية ما يعيشه العالم اليوم من طفرة في التقنية .. فهذا كلام يرد عليهم من أبواب شتى: أهمها أن ما وصل إليه العالم من تقدم تقني هو ثمرة مسيرة البشر وتجاربهم ونجاحاتهم من آدم عليه السلام وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها؛ ولا يحق لأي حضارة أن تحتكرها لنفسها فما نحن فيه اليوم هو وليد الأمس وقبل الأمس؛ قد ساهم فيه كل شعب وأمة بسهم .. ويرد عليهم أيضًا أن الغرب الظالم فرض على كل الدول التي استعمرها الجهل والتخلف وسلبها علومها وسرق ثرواتها وعلمائها وخيرة أبنائها وزيف تاريخها .. والمطلوب منا أن نثور عليه وأن نتحرر منه لا أن نلهث على دربه؛ فلن يمنحنا إلا الفتات .. وما نحن فيه فبما كسبت أيدينا لا بسبب الإسلام؛ كما يزعم العلمانيون قاتلهم الله .. وكما أسلفت فإن الفشل الذي نعاني منه بسبب تخلينا عن الدين وركوننا إلى الغرب.

أول ما يعلمنا الإسلام هو التغيير؛ وأنه شمولي لا يصلح فيه الشراكة قال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ {٢٥} سورة الأنبياء .. وترشدنا تجارب التغيير أن نختار الشعار الذي لا يمكن أن يناور حوله العدو .. فالفارق كبير بين المطالبة بإسقاط النظام وبين إسقاط الطاغية .. فالنظام يمكنه التخلي عن الطاغية ثم يعيد إنتاج نفسه مرة أخرى .. لكن إسقاط النظام يعني ذهاب الفاسدين دفعة واحدة .. ويؤدي إلى التغيير الحقيقي لإقامة نظامنا الذي نعتقد صحته وسلامته لأنه اختيار إلاهي .. ولهذا كان الشعب عبقريًا عندما أطلق شعار [الشعب يريد إسقاط النظام] .. بعض الأنظمة تقف خلفها قوى إقليمية وعالمية؛ فينتبه لذلك .. ولابد من وضعهم ضمن قائمة الأعداء في استراتيجية التغيير .. ومن هنا نرى عبقرية القاعدة التي غدت طليعة الأمة في العمل على إسقاط النظام العالمي.

وعود على بدء .. فإن الرمز الذي يجب أن نوليه الاهتمام ونناضل عنه ونعمل على إقامته والتضحية في سبيل نشره هو الدين لا البشر .. وعلى الناس والثروات أن تكون للدين تبع .. فالدين يلهمها ويديرها .. فيهذب الرموز والناس ويحد من شراسة المنافسة على الثروات .. ويضمن للضعفاء حظًا يقيمون به حياتهم .. ويستثمرها أفضل استثمار ممكن من خلال نظام مالي يضمن للناس حقوقهم ويمنع ظلم وجشع المرابين وتجار البشر .. فإذا فقد البشر دينهم فلن تراهم إلا حيوانات قمامة ينهش بعضها بعضًا على فتات الدنيا كما يحدث اليوم في الغرب (أمريكا) والشرق (الصين) .. فعندما تدير الثروات البشر ساعتها نعرف أي وحش فلت من عقاله.

الدين جاء ليحمي الإنسان من الإنسان .. وليمنح الإنسان الحرية الكاملة في الاختيار العقدي .. ثم يلزمه بما فيه الخير له ولبني جنسه ولمن على الكوكب وما في باطنه في هذه الدنيا .. ليعود عليه بما ينفعه في آخرته .. فجاءت تكاليف الشريعة لنفع الناس في الدين (تعليمًا وعملًا)؛ وحفظ وجودهم في الدنيا .. والتوسعة عليهم ورفع الحرج والمشقة عنهم دون إفساد .. ودعوتهم للأخذ بمحاسن العادات التي تجملهم وتجنب المساوئ التي تشينهم.

الدين هو عقال البشر يمنعهم من التحول إلى حيوانات .. فإذا فقدنا ديننا فقدنا بشريتنا .. وإذا فقدنا بشريتنا فالبقاء في صراع الحياة للأقوى .. وربما للأذكى أو الأضخم أو الأغنى أو غير ذلك؛ لكنه لن يكون أبدًا للقيم والمبادئ.

***

في زماننا هذا ساد صنف آخر؛ تجار الشيطان من أصحاب الأموال والشركات العابرة للقارات .. الذين أخضعوا بثرواتهم العروش والجيوش .. وهما -العروش والجيوش- بدورهم أخضعوا لهم البلاد والعباد .. وأصبحوا -رجال الأعمال- بأموالهم القدوة .. وسار الناس على خطاهم يتنافسون بشرف وبدون شرف ليجمعوا المال من أجل التسلط والمتعة؛ قال تعالى {فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ {٧٩} سورة القصص .. فماذا قدموا للبشرية؟[٢] الترفيه الرياضي والترفيه الإباحي وتجارة الدخان والمخدرات والخمور والسينما وأدوات القتل والحرب .. لقد تحول كل شيء إلى سلعة تقوم بالمال .. المال الذي يمكنه ابتكار المبادئ الباطلة وصياغة التاريخ المشوه وتسويق ذلك للناس .. نشروا الإلحاد والإباحية وصنعوا الجهل؛ فسيطروا على الناس وصاغوا عقولهم بما يفسدهم في الدنيا فتمزقت أواصر الترابط الاجتماعي وانتهت مؤسسة الأسرة في الغرب .. وبما يفسد آخرتهم فضلوا وأضلوا ولم تعد ضمائرهم تعرف معروفًا أو تنكر منكرًا .. وما يعانيه العالم اليوم من أوبئة وجائحات وحروب وتناحر وأزمات في الطاقة والغذاء يعود إلى حصاد فعالهم وسوء سلوكهم وفساد نواياهم وانتكاسة فطرتهم.

[٢] هناك مجالات نافعة كالطب والتقنية وما شابه تقدم شيء حقيقي للبشرية وهي عادة تمول من الدولة أو تدعم من قبلها؛ وعادة ما تكون خاضعة لسياسة الدول .. وهناك أيضا السلع المفترض أن تكون معمرة مثل الأجهزة المنزلية والسيارات وأدوات الإنتاج الزراعي والصناعي والحرفي وغير ذلك؛ التي تم انتاجها تحت فلسفة الاستهلاك فلم تعد تعمر أكثر من خمس سنوات.

حينما يكون الانتماء لأصحاب الأموال والشركات العملاقة فهم يسخرون كل شيء لنصرة باطلهم فيحرفون الدين ويحرفون الإنسان في منتدى الرذيلة .. فالمال هو الذي يصنع الدين وهو الذي يُقَيم الرجال وهو الذي يُقِيم النظام ويضع القوانين .. وكل هذا يجب أن ينسجم مع حركة نمو المال .. فأي خير من ذلك ينتظر؟ .. والناس في غفلة عن مستقبل هذه المسيرة للعالم؛ فحالهم أشبه بمسيرة السائرون نيامًا.

الحرب اليوم اقتصادية وغدًا شيئًا آخر .. إنها صراع بين رجال المال والشركات في الشرق والغرب على الموارد والتصنيع والتسويق .. وكما ذكرت آنفًا أن رجال المال والشركات العملاقة هم الذين يتحكمون بالعروش والجيوش.. فهذا يعني أن الشرارات المتطايرة من الحرب الاقتصادية توشك أن تشعل حربًا عالمية .. ولكنّ إن قامت هذه الحرب فهي ذات قدرات تسليح هائلة وغير مسبوقة؛ وهذا نذير شؤم لشمال الكوكب سواء المشرق (روسيا والصين) أو الغرب (أمريكا وأوروبا) .. وهذا يطرح تساؤلات كثيرة منها: هل أفلت الزمام من يد المتحكمين بالمال؟ .. هل في هذا منحة للمسلمين بانشغال الظالمين بالظالمين؟ .. وهل تنجح برودة أعصاب حكام الصين في ضم تايوان بهدوء وحكمة؟ لتُفوت على الخبث والمكر الأمريكي فرصة استنزافها كما حدث مع روسيا؟! .. دائمًا ما تجد أمريكا وكيلًا عنها[3] تستنزف على أرضه خصومها؛ دون أن يصيب النظام الأمريكي مكروه أو تنهار بنيته التحتية بفعل الحرب أو تلوث أراضيها بآثارها .. وسيفهم هذا جيدًا زيلينسكي وشعبه عندما يُقبل الشتاء وتتخلى عنهم شعوب أوروبا؛ أوروبا التي عاقبت نفسها مع روسيا لإرضاء أمريكا.

قد يحمل هذا الصراع في طياته نوع من الانفراجة لجنوب الكوكب وفرصة لعودة الحضارات القديمة الأكثر حلمًا وحكمة وفهمًا لدور الإنسان على الكوكب .. وهذا الآن يتوقف على تقدير الرجال ومدى التهديد الوجودي بينهم .. أي على جنونهم وعنادهم وحلمهم وحكمتهم.

وفي ظلال عالم لم تجمعه القيم والمبادئ بل تلوث بما يقود إلى الفوضى .. ومع الخوف من تعداد سكاني يكاد يصل إلى ثمانية مليار نسمة .. أي أنه تجمع سكاني خارج عن السيطرة .. فهناك تآمر ونظريات تدعو إلى التخلص من نصف هذا العدد أو أكثر ليس لعلة المجاعة؛ لعدم نمو الموارد بانسجام مع نمو البشر -كما يزعمون- ولكن من أجل إحكام السيطرة على القطعان البشرية -بحسب رؤيتهم للناس- .. ولا يوجد أفضل من التجار

[3] هذا لا يمنع أمريكا من أن تجعل من قواتها مرتزقة لبعض الدول؛ تدافع عنهم مقابل مبلغ للإيجار.

-رجال المال- ليتخذوا هذا القرار؛ ليهلكوا أنفسهم ومن حالفهم بالحروب والأوبئة والمجاعات .. وللأسف فإن كثيرا من الناس غفلوا عن مكرهم واستغرقوا في الأسباب وغفلوا عن رب الأسباب الذي قال في كتابه الحكيم: {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَلِكُم مِّن شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ {٤٠} سورة الروم .. فهو سبحانه المتكفل بحياة البشر ورزقهم وموتهم على الأرض .. والعقاب أو الهلاك بالمجاعات -أو غيرها- عقوبة ربانية ترجع لكفرهم وتعديهم لا للزيادة السكانية قال تعالى: {وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ {٩٦} سورة الأعراف .. وقال تعالى {قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ {٤٢} سورة الروم.

هذه الرؤية المظلمة (للحرب والأوبئة والمجاعات) سببها الرئيسي هو أن القدوة سقطت في عبادة المال .. فأسر بريق الذهب ولمعانه عيونهم وعقولهم وقلوبهم .. بريق الذهب يصيب جامعوه بلوثة الأنانية والقوة والسلطة.

من أسباب هذه الرؤية أيضًا هو التيه الذي دخلت فيه البشرية .. فعلى الرغم من فهم الإنسان الغربي ومسخه الشرقي لسوء فعالهما إلا أنهما غضا الطرف -جشعًا- عن عواقب أعمالهما وعميا عن مراد ربهم .. وبرغم ما حصدوه من ثروات كانت تكفل الحياة بسعادة للجنس البشري؛ إلا أنه كلما ازداد ثراؤهم استغنوا عما سواهم؛ وزاد طغيانهم على الخلق؛ كل الخلق .. قال تعالى: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ {١} خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ {٢} اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ {٣} الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ {٤} عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ {٥} كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَى {٦} أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى {٧} سورة العلق.

وإذا استمر الحال على ما هو عليه أو ازداد سوءً بفساد عقولهم أو بقي العالم أسيرًا بين يدي قادة الطغيان والجشع والأنانية فيوشك أن تعمهم عقوبة ربانية .. قال تعالى: {ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ {٤١} سورة الروم.

وأختم بقصة قارون؛ قال الحق سبحانه وتعالى:

{إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ

لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ {٧٦} وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ {٧٧} قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ {٧٨} فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ {٧٩} وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ {٨٠} فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ المُنتَصِرِينَ {٨١} وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ {٨٢} تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ {٨٣} مَن جَاء بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَمَن جَاء بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ {٨٤} سورة القصص.

وليفهم كل من عاند أو تعامى عن مراد ربه أنهم لحتفهم وشقائهم يسيرون .. وأنت أيها القارئ اختر لنفسك رمزًا يلهمك في الدنيا وينجيك في الآخرة.